AFAQ RESEARCH HORIZONS (ARH)
مجلة آفاق بحثية متعدد التخصصات في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد الأول – العدد الثاني – يونيو 2026

الجسد المتعب في خطاب الرحلة: تمثلات عياء العبيد من خلال رحلة ابن بطوطة

The Weary Body in Travel Writing: Representations of Enslaved Fatigue in Ibn Battuta's Travelogue

د. رشيد سماعيلي

دكتوراه في التاريخ الوسيط

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة محمد الأول - وجدة

البريد الإلكتروني: smmailirachh@gmail.com

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى استنطاق ما أسدل عليه ابن بطوطة الصمت في رحلته "تحفة النظار"، من خلال إعادة قراءة النص قراءة نقدية تستنطق المسكوت عنه وتأويله، كاشفة عن المعاناة الجسدية والنفسية للرقيق. وقد تناولت الدراسة خمسة محاور: عناء الجسد في الترحال القسري، وعناء الهوية المسلوبة، وعناء الأمومة خلال الرحلة، وإيديولوجيا اللغة التي وظّفها ابن بطوطة في وصف الرقيق بلغة التملك بدلا من اللغة الإنسانية، وصولا إلى استراتيجيات التعافي والمقاومة التي ابتكرها الرقيق من فرار وتدين وأغان ومقاومة يومية. وخلصت الدراسة إلى أن الرقيق لم يكونوا ضحايا سلبيين، بل فاعلين في مواجهة عيائهم، وأن رحلة ابن بطوطة تبقى وثيقة تاريخية تقول في صمتها أكثر مما تقول في كلامها.

الكلمات المفتاحية: الجسد المتعب؛ ابن بطوطة؛ الرقيق؛ التعافي.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال:

سماعيلي، ر. (2026). الجسد المتعب في خطاب الرحلة: تمثلات عياء العبيد من خلال رحلة ابن بطوطة. مجلة آفاق بحثية متعدد التخصصات في العلوم الاجتماعية والإنسانية، 1(2)، 115-129. https://doi.org/10.5281/zenodo.21269222

Abstract:

This study aims to uncover what Ibn Battuta silenced in his travelogue *Tuhfat al-Nuzzar*, through a critical rereading of the text that interrogates its silences and interprets what remains unspoken, thereby shedding light on the physical and psychological suffering of enslaved people. The study addresses five themes: the ordeal of forced displacement, the anguish of a stolen identity, the suffering of motherhood during travel, the ideology of language through which Ibn Battuta described enslaved people in terms of ownership rather than humanity, and finally the strategies of recovery and resistance that the enslaved devised, including escape, religious devotion, song, and everyday acts of defiance. The study concludes that enslaved people were not merely passive victims, but active agents in confronting their exhaustion, and that Ibn Battuta's travelogue remains a historical document that speaks more through its silences than through its words.

Keywords: the weary body; Ibn Battuta; enslaved people; Recuperation.

مقدمة:

تعد رحلة ابن بطوطة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" من أبرز نصوص أدب الرحلة في التراث الإسلامي، إذ تمتد لتغطي مساحات جغرافية شاسعة وتوثق مشاهدات استثنائية أنثروبولوجيا وسوسيولوجيا عن الشعوب والحضارات. غير أن هذا النص الثري يحمل في طياته شهادات مضمرة وفصيحة على تجربة إنسانية طالما أهملت في الدراسات الأكاديمية، وهي تجربة الرقيق الذين رافقوا الرحّالة في أسفاره أو مرّوا عبر صفحات رحلته.

ومن هذا المنطلق تنبثق إشكالية هذا البحث: ما الذي يكشفه نص ابن بطوطة عن المعاناة الجسدية والنفسية للرقيق، وكيف وظف ابن بطوطة لغته في تصوير هذه الفئة الإنسانية المهمشة؟ وهل كان الرقيق مجرد ضحايا سلبيين أم أنهم أبدعوا في مقاومة عيائهم وبناء استراتيجيات للتعافي؟

وتكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تعيد قراءة نص الرحلة من منظور مغاير، يستنطق ما صمت عنه ابن بطوطة أو أشار إليه عرضا، معتمدة على مقاربة نقدية تستلهم أدوات التأويل باعتباره تأمل ثان لعملية كتابة التاريخ **(بول ريكور، 2009، ص495)** وقد اقتضى ذلك تقسيم المقال إلى محاور خمسة: يتناول الأول عناء الجسد في الترحال القسري، ويتوقف الثاني عند عناء الهوية المسلوبة، فيما يُخصص الثالث لعناء الأمومة خلال الرحلة، ويكشف الرابع عن إيديولوجيا اللغة التي وظفها ابن بطوطة في وصف الرقيق، ليختتم البحث بمحور خامس يرصد استراتيجيات التعافي والمقاومة التي ابتكرها الرقيق في مواجهة عيائهم.

أولا: عناء جسد الرقيق من الترحال القسري: استنطاق النص الصامت

قبل الحديث عن الترحال القسري، لا بأس من تقديم نبذة مختصرة عن ابن بطوطة، وهو محمد بن عبدالله الطنجي، وُلد سنة 703هـ/1304م، رحالة وفقيه وقاض مغربي، وُلد بطنجة، ومنها انطلقت رحلته التي شملت القارات الثلاث المعروفة في عصره، ودامت رحلته تقريبا ثلاثين سنة، وقد عمل قاضيا في العديد من الدول التي زارها. وبعد عودته إلى المغرب، أملى مشاهداته على الكاتب ابن جُزَي الكلبي بأمر من السلطان المريني أبي عنان، وصيغت بعنوان: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، وهي المعروفة برحلة ابن بطوطة.(معلمة المغرب، ج.4، ص1268).

من بين أبرز أوجه معاناة العبيد، كما هو مدون في رحلة ابن بطوطة، الترحال القسري المتواصل الذي كانت تعانيه هذه الفئة. فقد فرض على العبيد والجواري الذين في ملكية صاحب "التحفة" أن يرافقوه في رحلاته الطويلة المضنية عبر القارات، عبر مسالك وعرة، وجبال شاهقة، وأودية جارية، وصحاري قاحلة... فهل كان للعبيد أي خيار في ذلك؟ أم أنهم مجرد دواب؟ خصوصا أن الذهنية الفقهية وضعت العبيد في منزلة واحدة مع الدواب وهي ذهنية لا تمت صلة "بحقوق الإنسان"، حيث عَنون صاحب "نهاية الرتبة" الباب الرابع والثلاثين من كتابه ب: "في الحسبة على نخاسي العبيد والدواب" **(عبد الرحمن بن نصر الشيزري، 1946، ص84)**، كما عَنون صاحب "معالم القربة" الباب الحادي والأربعين من كتابه ب: "في الحسبة على سماسرة العبيد والجواري والدواب والدور **(ابن الأخوة، 1976، ص238)**.

تنطوي رحلة ابن بطوطة على العديد من المخاطر الجسيمة، مناخ حارّ أو بارد، ودوار البحر، وحر الصحراء اللافح... وفي هذا السياق، يخبرنا ابن بطوطة أنه أقام بإحدى المدن نحو أربعين يوما بسبب مرض أصاب فرسه، فلما أعياه الانتظار،

انصرف ومعه ثلاثة من أصحابه وجارية وغلامان **(ابن بطوطة،1987، ج.1، ص317)**. وسنحاول من خلال تحليلنا الاعتماد منهجيا على استنطاق المسكوت عنه في نص الرحلة، أي أننا سننطلق من تأمل كيفية وصف ابن بطوطة لجسده، ثم نسقط ذلك على جسد العبيد المشاركين في الرحلة. ومن خلال المقارنة بين جسد ابن بطوطة المُعبر عنه وجسد العبيد الصامت، سنقف عند تمثلات عناء العبيد في خطاب الرحلة.

وظف ابن بطوطة في المقطع السابق الفعل بصيغة المتكلم المفرد، إذ قال: "أقمت بهذه المدينة نحو أربعين يوما" **(ابن بطوطة، 1987، ح.1، ص317)**، ووصف التعب أيضا بصيغة المفرد حين قال: "فلما طال عليَّ المكث" (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص317). وعليه، فإن هذا التفاوت في الوصف هو بعينه ذلك العناء الغائب الذي لم تعبر عنه الرحلة حين يتعلق الأمر بفئة العبيد. فإذا كان المالك قد طال عليه الانتظار وأصابه الضجر، فكيف يكون حال المملوك الذي لا يعرف حتى وجهته؟ بل ما يزيد من عنائهم أن ابن بطوطة ذكر أنه لم يكن في رفقتهم "من يحسن اللسان التركي ويترجم عنا" (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص317).

وخلال هذا السفر، رافقتهم امرأة تركية على فرسها مع خادمها، وبعد محاولتهما قطع الوادي سقطا، فنجت المرأة بعد إنقاذها، أما خادمها "فقد قضى نحبه" (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص317). فما هو إحساس الجارية والغلامين حين رأيا إنقاذ المرأة باعتبارها مالكة وحرة، في حين وجد الخادم قد لقي حتفه؟ وكيف ينعكس هذا الإحساس على عنائهم النفسي؟

ما يستشف من خلال هذا المقطع أنه بالرغم من حضور جسد العبيد صامتا في نص الرحلة، إلا أن وعورة المسالك، وصعوبة قطع الأودية الجارية، والمبيت في القرى الغريبة (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص317). عنهم لغة وثقافة، قد أرهقت أجسادهم وأنهكتها. غير أن ابن بطوطة في بعض الحالات كان يفصح عن هذه الصعوبات، كقوله: "وبقيت جارية صغيرة خافوا في تجويزها، وكان فرسي خيرا من أفراسهم فأردفتها، فأخذت في جواز الوادي، فلما توسطته وقع بي الفرس ووقعت الجارية، فأخرجها أصحابي وبها رمق" (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص321) ، لكنه مباشرة بعد ذلك يصمت مجددا عن معاناة الجارية، ويستأثر بنفسه حين وصلوا إلى الزاوية، إذ يقول: "وجدت النار موقدة فنزعت ثيابي ولبست ثيابا سواها واصطليت بالنار" (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص322). ويزداد إرهاق الجارية ومعاناتها حدة إذا علمنا من الرحلة أن هذا

السفر تزامن مع فصل شتاء قارس. فهل غيرت الجارية لباسها المبلل؟ وهل كانت تحمل أصلا ثيابا احتياطية في رحلتها؟ لا سيما أن ابن بطوطة نفسه وصف بعض الجواري بأنهن عاريات (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص704).

يتأكد أكثر عناء العبيد خلال رحلاتهم القسرية من النص الآتي: "أقمنا بجبل يقال له هندوكش ومعناه قاتل الهنود لأن العبيد والجواري الذين يؤتى بهم من بلاد الهند يموت هنالك الكثير منهم لشدة البرد وكثرة الثلج، وهو مسيرة يوم كامل" (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص396). يمدنا النص بإشارة مهمة حول توظيف المقاربة الطوبونيمية في دراسة موضوع "عناء جسد الرقيق من الترحال القسري". ضف إلى ذلك أن جغرافيا العياء يتفاوت تأثيرها في التعب من مجال إلى آخر، ما يعانيه الرقيق في جبال الهند يفوق بكثير ما يعانيه في سجلماسة مثلا.

يمكن القول إن بعض العبيد لازموا ابن بطوطة في رحلته لمسافات طويلة مضنية، وهو ما يستشف من قوله: "ولم أرَ في السودان أكرم منه ولا أفضل، والغلام الذي أعطانيه باق عندي إلى الآن" (ابن بطوطة، 1987، ج.2، 709). فالغلام يحضر في خطاب الرحلة مجرد هدية ومتاع ظل بحوزة ابن بطوطة، لكن مشاعره ومعاناته ظلت غائبة، ومن جهة آخرى فهو يشير أنه باق عندي إلى الآن. بمعنى أن صيغة "إلى الآن" تحيل مباشرة إلى وقت تدوين الرحلة "وكان الفراغ من تقييدها في الثالث من ذي الحجة عام ستة وخمسين وسبعمائة" (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص714)، إذن فالغلام لم يرافق ابن بطوطة في رحلته المضنية فحسب، بل ظل في ملكيته حتى بعد انتهائها واستقراره بالمغرب الأقصى. وحضور الغلام في هذا السياق لا يعدو كونه شاهدا على كرم سلطان السودان، في حين لم يعترف ابن بطوطة بما قاساه هذا الغلام طوال تلك السنين. فالرحلة انتهت بكل ما حملته من قسوة ومشقة، لكن معاناته لم تنته معها، إذ لا يزال في نظر سيده مجرد هدية وشيء لا روحا إنسانية لها وجدانها وألمها.

يمكن إنهاء هذا المحور بمقطع للإيطالي جورج فيغاريلو الذي يقول فيه: "إن السفر بمعاناته وبطوارئه هو الوجه الآخر للتعب التي يجري الحديث عنه بانتظام في العصر الوسيط. فالمشقة تبقى فيه أكثر رتابة من مشقة القتال، وهي مفروضة أكثر من كونها ذات قيمة. إنها حتمية وبالخصوص مخيفة، ومعلق عليها" (Georges Vigarello,2020,p27).

ثانيا: عناء الهوية المسلوبة

تظهر إشارات حول عناء هوية الرقيق المسلوبة، تارة واضحة وتارة صامتة، في خطاب رحلة ابن بطوطة. يصف صاحب "التحفة" سوقا ببغداد يسمى سوق الجوهريين، فيقول: "حار بصري مما رأيته من أنواع الجواهر، وهي بأيدي مماليك حسان الصور، عليهم الثياب الفاخرة، وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير، وهم بين أيدي التجار يعرضون الجواهر على نساء الأتراك." (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص242). وما يستخلص من ذلك أن هؤلاء المماليك قد اقتلعن من بلادهن ونقلن قسرا إلى بغداد، فلا مناص من أن يعانين الاغتراب والحنين إلى بلادهم ولغتهم، فضلا عن عناء الهوية المسلوبة. فالوقوف يوميا على هيئة دمية أمام محلات أسواق بغداد العامرة، والخوف الدائم من العقاب، كل ذلك يطرح تساؤلات موجعة: متى كن يسترحن من الوقوف؟ وهل كان يستبدل بهن في أيام المرض؟ وإن كانت صورة المماليك ظاهريا جميلة، لباس أنيق، إلا داخلهم يكمن القلق والخوف، وسبب هذا الخوف تحديدا هو الزحام والشُّطار في السوق، مما يجعل احتمال سقوط أو ضياع الجواهر واردا جدا، وما سيترتب على ذلك من عقاب صارم (الجلد، النفي...) لا يتحمله سواهم كونهم مماليك.

ومن مظاهر العناء النفسي ما ذكره ابن بطوطة في حق غلام أرسله مالكه لشراء خروف له، فلما أُخذ منه بسبب المزايدة من قِبل غلام آخر، غضب منه سيده ونفاه (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص260). وقد يشعر هذا الغلام بالراحة والخوف في آن واحد، الراحة في أنه انفصل عن سيده القاسي، والخوف والقلق النفسي من المجهول: إلى أين؟ وكيف سيكون السيد المستقبلي؟ فهذا الاستبعاد القسري يسبب له اغترابا ومعاناة نفسية.

في إحدى أسفاره يخبرنا صاحب "التحفة" أنه رأى صبيا من العرب "كلمني باللسان العربي وأخبرني أن البُجاة (شعب أو جماعة عرقية تعيش في السودان ومصر) أسروه، وزعم أنه منذ عام لم يأكل طعاما، إنما يقتات بلبن الإبل" (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص289). فانقطاع هذا الغلام عن أسرته وقبيلته وأرضه، وربما استبدال اسمه العربي باسم أو لقب جديد من قِبل قبائل البُجاة الرعوية، جعله لا يقتصر على سؤال: أين أنا؟ بل ينضاف إليه سؤال آخر مؤرق: من أنا؟ وإلى جانب عيائه الجسدي المتمثل في الرعي، خصوصا إذا كان حضري النشأة، يفصح النص كذلك عن كون هذا الغلام لم يلائم طعام البجاة معدته، وربما عانى من أوجاع. إذن الطعام في هذه الحالة ليس مجرد غذاء، بل هو هوية وانتماء لهذا الغلام، فحين

يسلب منه حتى طعامه المألوف يشعر بأنه فقد آخر ما يربطه بإنسانيته وأصوله العربية، مما يزيد عناءه ويعمق جرحه النفسي.

من مظاهر عناء الهوية المسلوبة في خطاب الرحلة أن يصبح الرقيق هدية. فقد تلقى ابن بطوطة في رحلته العديد من الرقيق على شكل هدايا، يذكر منهم مملوكا يحمل اسم ميخائيل (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص 310)، "ومملوكا روميا خماسيا اسمه نقوله"ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص311). وفي حالة المملوك "نِقُولَه" لم تسلب منه الهوية فحسب، بل منع من تكوينها وسط أهله، إذ أُخذ صغيرا في سن الخامسة، مما يعني أن هويته تشكلت وفق إرادة سيده لا إرادته. فمن حيث الجنسية والجغرافيا هو رومي، لكن هل يعرف ماذا يعني أن يكون روميا؟

يضاف إلى ذلك انتقاله من يد إلى يد، مما يزيد من عيائه الجسدي والنفسي، خصوصا أن ابن بطوطة نفسه كان لا يتردد في تقديم رقيقه هدايا، كما قدم جارية تركية هدية للهنود (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص517). فاغتراب المكان من الأناضول إلى الهند، والعياء غير الظاهر المتجلي في صمتها، لا شك أن في داخلها حزنا وقلقا عميقين. فكيف تتمثل هذه الجارية التركية قبائل الهند؟ ربما ما ترسخ في ذهنها وهي وسط قبيلتها من أن بعض قبائل الهند من آكلي لحوم البشر (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص647)، أو ما سمعته في الطريق إلى الهند، قد يجعلها في دوامة من العناء النفسي.

إن انفصال الرقيق عن هويتهم الأصلية، ومعاملتهم كسلع وأشياء، وخوفهم الدائم من العقاب، لا سيما أن أحدهم عوقب بسمل عينيه وطرحه في الأسواق (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص 66-67)، وعوقب آخر بالضرب بعصا الخيزران والتشهير به (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص601)، كل ذلك كان يُشكل لهم عياء جسديا ونفسيا لا يطاق.

ثالثا: اغتراب الجسد المنتج: عناء الأمومة وسيرة الرقيق المنسية في الرحلة

إذا كان ابن بطوطة قد أرخ للمدن والمسالك، فمن يؤرخ لعناء الأجساد التي عبرت تلك المسالك وهي تحمل أثقال الأمومة والرق؟

قد لا نبالغ إذا قلنا إن من بين المواضيع الأشد إرهاقا جسديا ونفسيا بالنسبة إلى فئة الرقيق خلال الرحلة هو موضوع: "عناء الأمومة". يذكر ابن بطوطة خلال خروجه من مدينة بخارى ونزوله بإحدى البلدات فيقول: "وعندي جارية

قد قاربت الولادة، وكنت أردت حملها إلى سمرقند لتلد بها، فاتفق أنها كانت في المحمل، فوُضع المحمل على الجمل وسافر أصحابنا من الليل وهي معهم" (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص 375)، في حين انتظر هو إلى الصباح. ما يستشف من هذا النص هو فيزيولوجيا التعب في مسالك الرحلة، كيف يكون الطريق إلى سمرقند؟ ويزيد من هذا التعب السفر ليلا، بما ينطوي عليه من حيوانات مفترسة وقطاع طرق، وهذا في حد ذاته يشكل إرهاقا نفسيا كبيرا.

يفصح ابن بطوطة عن وسيلة نقل الجارية الحامل، إذ وضعت في محمل على جمل، ولا شك أن ذلك شكل لها مشقة وعناء، لا سيما أن المحمل المخصص للجواري سيكون لا محالة من النوع الرديء. وشتان بين عمارية النخبة ومحمل الجواري.

يواصل ابن بطوطة في ذلك، إذ لما لحق بهم بعد يوم بحث عن خباء، فقال: "فجعلت الجارية في تلك الخِرقة (يعني الخباء)، فولدت تلك الليلة مولودا، وأخبروني أنه ولد ذكر، ولم يكن كذلك، فلما كان بعد العقيقة أخبرني بعض الأصحاب أن المولود بنت، فاستحضرت الجواري فسألتهن فأخبروني بذلك... وتوفيت (هذه البنت) بعد وصولي إلى الهند بشهرين"(ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص376).

اختزل صاحب "التحفة" جسد الجارية الأم في أداة للإنجاب، علما بأن الشروط المحيطة بهذا الإنجاب، السفر، والمحمل، والليل، والخباء، كل ذلك عمَّق من عناء الجسد البيولوجي: الحمل، والولادة، والإرضاع، والعناية بالمولود، لأن كل تلك الحركات وغيرها متطلبة للجهد وتندرج ضمن ما يسمى في حقل السوسيولوجيا بمفهوم "تقنيات الجسد" (دافيد لوبورتون،2018، ص47). ومما يثير الانتباه أنه أشار إلى أنه حتى حدود العقيقة لم يكن قد رأى مولوده. فهل كان يعتزم التخلي عن الجارية وبنتها، ولذلك أُخبر بأن المولود ذكر؟ كما أن المسكوت عنه في هذا النص الرحلي أن ابن بطوطة "احتفى" بقدوم مولوده من جاريته، لكن لماذا غيب صوت الأم الجارية؟ لأنه لا يرى في الجارية إلا وعاء للإنجاب، فالأهم عنده تلك الثمرة (المولود) لا سيما إذا كان ذكرا، أما الوعاء (الأم) فهي مغيبة، مما يدفعنا إلى التساؤل واستنطاق النص حول آلام الطلق وانعكاسها على عناء الأم الجارية، خصوصا إذا كانت هذه أول مرة تلد فيها.

وفي بعض الحالات حتى ذلك المولود الذي من صلبه يدير له ظهره وينصرف "وولدت مني بنتا، ولا أدري ما فعل الله فيهما" (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص499) هذا التعبير الأخير بصيغة لا أدري ما فعل الله فيهما يحمل عناء وجوديا

لجسدين منفصلين عمن كان سيحميهم، لذلك ستحاول تلك الأم جاهدة الصمود أمام صعوبات الحياة بعد التخلي عنهم، وما ستكابده تلك البنت من معاناة نفسية وجسدية في غياب الأب.

بناء على ما سبق، يمكن القول إن المالك، سواء أكان ابن بطوطة أم غيره، هو الذي كان له الحق في "المراقبة السياسية للجسدانية" (دافيد لوبورتون،2018، ص 86)، بمعنى أن المالك هو الذي كان يضفي الشرعية على حدوث الحمل أو منعه، بل يمكن القول إنه صاحب الحق في الترخيص بالإجهاض في بعض الحالات. أما الجارية فهي مجرد آلة بيولوجية، لذلك كان جسدها منهكا بالإنجاب والخدمة معا.

كيف يمكن كتابة "تاريخ الألم" لفئة الجواري من خلال المسكوت عنه في رحلة ابن بطوطة؟ ما مصير الأمهات اللواتي تخلى عنهن ابن بطوطة في مختلف الأماكن التي مرّ بها؟ هل هذا الانفصال هو انفصال جسدي وفقط أم هو تمزيق لهوية الجواري؟

يشير ابن بطوطة في رحلته إلى زواجه المتكرر عبر مختلف المناطق التي زارها، حتى إنه خصص فصلا لذلك بعنوان: "ذكر تزويجي وولايتي القضاء" (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص599)، وكان يجمع في بعض المناطق بين أربع زوجات في آن واحد (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص600).

يخبرنا صاحب التحفة أنه لما رحل من إحدى الجزر، من بين الأمور التي قام بها قبل المغادرة أنه قال: "طلقت إحدى الزوجات، وكانت إحداهن حاملا، فجعلت لها أجلا تسعة أشهر، إن عدت فيها، وإلا فأمرها بيدها" (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص602). يمكن انطلاقا من سلطة النص أن نستشف أن ابن بطوطة، حين جعل لها أجلا تسعة أشهر، وأنه في حال عاد إليها تكفل بها، وإن لم يعد فلتتصرف في أمرها، إنما وضع هذين الشرطين فقط ليحافظ على صورته بوصفه فقيها قاضيا. لأنه مباشرة بعد هذه الفقرة يسترسل قائلا: "وطلقت التي كنت ضربت لها الأجل" (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص603). سنحاول من خلال هذه الكلمات المقتضبة، من قبيل "وإلا فأمرها بيدها"، أن نستخلص المسكوت عنه حول معاناة الجواري الحوامل، وسواء كانت جارية أم حرة فالتخلي عنها يدخل ضمن موضوع عناء الأمومة في الرحلة بعد تخليه عنهن. قد لا يصمد هذا الجسد الحامل في ظل تخلي مالكه عنه، بل أكثر من ذلك سيواجه هذا الجسد عناء كبيرا في عملية

الولادة، في غياب من كان مصدرا لحماية هذا الجسد الحابل، وصُرة لدفع مصاريف نفقتها ومصاريف المولود الجديد (العقيقة، اللباس، الأكل، التطبيب، والجانب العاطفي...)

ما يثير الانتباه في دراسة عناء الأمومة في الرحلة هو أن ابن بطوطة يرى في جسد الجواري مجرد موضع للخصوبة (كارول م. كونيهان،2013، ص294)، للعبور منه، إما لـ"إنتاج" الأبناء، أو بحثا عن المتعة، وهو ما يؤكده في هذا النص: "فأصابت زوجتي أوجاع عظيمة، وأحبت الرجوع فطلقتها وتركتها هنالك...وطلقت التي كنت ضربت لها الأجل وبعثت عن جارية كنت أحبها" (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص603). وبناء على آخر جملة لابن بطوطة وهو يعبر عن مشاعره "كنت أحبها"، فأي هاجس كان يشغل بال الجواري: هاجس النحافة أم البدانة، حتى تستأثر باهتمام ابن بطوطة؟ في أي حال كانت الجارية تكره جسدها؟ (كارول م. كونيهان،2013، ص321). وهل حاولت تغييره سواء بتناول الأعشاب أو غير ذلك؟ وهل كان للانتقال المستمر من مكان إلى آخر، بوصفه نشاطا بدنيا، دور في تغيير شكل أجساد الجواري في ظل تشيئ الجسد؟

رابعا: إيديولوجيا العياء: لغة ابن بطوطة بوصفه فقيها وقاضيا في دراسته للرقيق

هل يستخدم ابن بطوطة لغة إنسانية أم لغة تملك؟ كيف يبرر شراءه وبيعه للبشر؟ كيف يبرر تلقيه وتقديمه الإنسان كهدايا؟ وكيف ينظر إلى حالات نادرة مثل الجارية التي بعث إليها لأنه يحبها؟

تفاعلا مع الإشكالات المطروحة، سنسعى من خلال تتبع متن رحلة ابن بطوطة إلى استنطاق اللغة الواصفة لمجتمع الرقيق. فإذا استلهمنا أطروحة بيير بورديو التي ترى في "الجسد هو تشيئ لذوق الطبقة بدون أدنى شك" (دافيد لوبورتون،2018، ص89). سنجد أن لغة ابن بطوطة ليست مجرد وصف محايد، بل هي تجسيد للهوة الطبقية، فباعتباره ينتمي "لطبقة" الأحرار النخبوية (قاضي وفقيه)، جاءت رؤيته ومعاييره اللغوية انعكاسا لذوق "الطبقة السائدة" (أصحاب القلم، الفقهاء، الخاصة) التي تعيد إنتاج تراتبية الرقيق بوصفهم أدوات لا ذواتا إنسانية.

يستند ابن بطوطة في توصيفه لعلاقة السيادة بالتبعية إلى معجم يفيض بأفعال التملك والقهر، مثل: أمر، ضرب، نهَر، نفى، أهدى، وهي أفعال تعكس تراتبية سلطوية حادة. ونلمس ذلك جليا في شواهد الرحلة، فعندما أراد أحد السلاطين بناء مسجد، صاغ الفعل بصيغة التسخير قائلا: "أمر ببنائه بعض العبيد" ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص78). كما تظهر لغة العقاب كآلية لضبط هذه العلاقة، فحين كسر أحد الغلمان صحنا، جزم ابن بطوطة بأن سيده "لا بد أن يضربه" أو

"ينهره" (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص120)، بل إنه يؤكد وقوع الفعل في مواضع أخرى بقوله: "فضربه""(ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص260)، وقد يتجاوز العقاب البدني إلى الإقصاء المكاني عبر فعل "النفي" (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص260)، أما حضور الجارية في النص، فيكاد يقتصر على البعد الوظيفي (الخدماتي)، حيث تظهر غالبا في سياق تقديم الخدمة، كأن تأتي حاملة قدرا (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص237)، مما يختزل كينونتها في دورها الأدواتي فقط.

ولا يقف الأمر عند حدود الخدمات، بل يمتد إلى التمييز في ألقاب الهوية ومنزلة الخطاب، ففي الوقت الذي يسبغ فيه ابن بطوطة ألقاب التشريف على الأحرار، كما في وصفه لصاحب السفينة بـ"الشريف منصور"، نجد الغلام في المقابل يظهر ككائن مسلوب الإرادة، محكوما بفعل "الأمر" (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص252)، لتأدية الخدمة في السفينة.

تغلب على لغة ابن بطوطة لغة التملك بدلا من اللغة الإنسانية، إذ يتعامل مع الرقيق بوصفه جزءا من الأدوات والمتاع، هدية أو شيئا يُقتنى ويباع، ويتجلى ذلك بوضوح في إشارته إلى أن جماعة من العميان لما شكوا ضعف حالهم إلى أحد السلاطين، "أمر لكل واحد منهم بكسوة وغلام يقوده ونفقة تجري عليه" (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص237) فقد وظفت لغة الإنصاف للعميان باعتبارهم أحرارا، في حين جرى تشيئ الغلمان واختزالهم في وظيفة الخدمة كمرافقة العميان للتسول في الأزقة والأسواق.

يركز ابن بطوطة في مواضع كثيرة على القوة البدنية للرقيق، وهي أوصاف تجعلهم أقرب إلى صورة "الحيوان" منها إلى الإنسان. ومن أمثلة ذلك وصفه لطريقة سقي الماء من الآبار، حيث يذكر كيف كان كل عبد يربط حبلا حول خصره ويجره بقوة لاستخراج الماء (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص288) في مشهد يشبه عمل الحيوانات التي تستخدم للجر. وهذا يدل على أن اللغة التي استخدمها ابن بطوطة، ونوع الخدمة التي كان يؤديها هؤلاء العبيد، كلاهما كان بعيدا كل البعد عن التعامل الإنساني.

يتحدث ابن بطوطة كثيرا عن الرقيق بلغة الهدايا، إذ يدرج ضمن رحلته العديد من الإهداءات، إما تسلمها (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص310)، أو قدمها (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص311) لآخرين. فهم في نظره مجرد أدوات لتمتين الصلات الاجتماعية والسياسية، بل إن هذه النظرة تتجلى حتى في ترتيب سرد مكونات الهدية، إذ يؤخر ذكر الرقيق إلى أسفل القائمة.

كما يستعمل ابن بطوطة لغة تصنيفية ترتكز على المعيار العرقي والجغرافي، ويتجلى ذلك في قوله: "ودخلنا على هذه الخاتون (بلغة المغاربة لالة) وهي قاعدة على سرير مرصع قوائمه فضة، وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات (مصر)، منهن قاعدات وقائمات، والفتيان على رأسها" ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص343) وهذا التصنيف العرقي والجغرافي ضرب من التحديد الذي يخدم منطق سوق النخاسة ومعايير جودة السلعة، وهو ما يتأكد حين يصف الجواري الهنديات بأنهن "قذرات لا يعرفن مصالح الحضر، والمعلمات منهن رخيصات الأثمان" (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص558).

خامسا: استراتيجية تعافي الرقيق من العياء.

بعدما ناقشنا في المحاور السابقة عناء جسد الرقيق من الترحال القسري، وعناء الهوية المسلوبة، وعناء الأمومة خلال الرحلة، وإيديولوجيا اللغة التي وظفها ابن بطوطة في متن رحلته، سنحاول الوقوف عند استراتيجية التعافي من العياء التي كان يلجأ إليها الرقيق للتخفيف من آلامهم وعيائهم الجسدي والنفسي.

تعددت أنماط التعافي والراحة التي سلكها الرقيق ضمن رحلة ابن بطوطة، تارة يأتي التعافي ضمنيا، أي خلال الرحلة، عندما يتوقف المالك للاستراحة فيستفيد الرقيق من ذلك التوقف، وتارة يأتي بشكل صريح يتخذ فيه الرقيق المبادرة بحثا عن الراحة.

عندما يختار المالك السيرَ في الصيف ليلا بدلا من النهار، فذلك نوع من التعافي كان يمس الرقيق أيضا (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص127) فالسير ليلا، وإن لم يكن وقتا للراحة الكاملة، يبقى ضربا من التعافي مقارنة بالسير نهارا في عز الصيف. كذلك كان التوقف للاستراحة في "الباحة" (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص110) والإقامة في بعض المناطق لأيام قد تصل إلى شهر قبل استئناف الرحلة (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص140) يتيح للرقيق خلال تلك المدة أخذ قسط من الراحة. ولم يكن ابن بطوطة يتردد في الوقوف عند الزوايا التي كانت تقدم خدماتها للوارد والصادر (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص444).

من أشكال التعافي والمقاومة الواردة في الرحلة: الفرار، إذ يذكر ابن بطوطة أنه أمر غلاما له بسقي فرسه، فلما ذهب إلى مكان الماء اغتنم الفرصة وفرّ بعيدا (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص312)، مما يدل على أن مهمة رعي الخيول (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص447) كانت مفضلة لمن أراد للفرار. كما كان الرقيق يجدون فرصة للالتحاق بقطاع الطرق بوصفه

نوعا من أنواع استعادة الاستقلالية، إذ كان قطاع الطرق البارزون يغوون الرقيق بالالتحاق بهم والفرار من ساداتهم، على أن يحصل كل عبد فارّ على فرس ومال، وإن أبدى شجاعة أو برزت مواهبه في الفروسية، أصبح قائدا على مجموعته (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص389)، وهو ما دفع بالعديد من الرقيق للفرار.

يخبرنا ابن بطوطة أنه خلال تجواله في أحد الأسواق، صادف غلاما أبَق منه منذ أشهر، وإذا به في يد رجل آخر (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص432) مما يكشف أن بعض الرقيق حتى في فرارهم كانوا غالبا ما يقعون في يد مالك جديد، فيعودون إلى حالتهم الأولى (التعب النفسي والجسدي).

كان الرقيق يتفانون في خدمة ساداتهم عسى أن يحصلوا في بعض الحالات على العتق، بوصفه شكلا من أشكال التعافي والراحة النفسية والجسدية، كما حدث لأحد الغلمان الذي أرسله مالكه لشراء خروف من السوق، فلما تفوق على غلام آخر في المزايدة عليه وأتم شراءه، عاد إلى مالكه فعلم بخبره وتفوقه فأعتقه وأعطاه ألف دينار (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص260). وربما كان الغلام يجد في هذا النوع من الإرسال، لا سيما إلى السوق، فرصة للتجوال وقضاء بعض الوقت في الفرجة، سواء في حلقات الفرجة أو غير ذلك، مما ينسيه ولو قليلا من تعبه.

ترد ضمن "التحفة" إشارات إلى ترديد الأغاني بوصفه شكلا من أشكال التسلية والترفيه، إذ وصف ابن بطوطة طائفة من الجذافين بقوله إنهم" كانوا يغنون بأصوات حسان، وأكثر ما يرددون: "لعلى لعلى" (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص637) كما اصطحب صاحب التحفة مغنيين كانا يغنيان له في الطريق" (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص536).

يشير ابن بطوطة إلى ممارسة لافتة كان يلجأ إليها بعض الرقيق للتخفيف من عيائهم، وهي شرب الخمر، إذ يذكر أنه اكترى حمالا في أحد أسفاره كان يشرب الخمر عند الكفار كلما نزلوا منزلا، ويعربد عليه (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص579).

إذا كان ابن بطوطة حين يصل إلى بعض الجهات يرتاد الحمام (ابن بطوطة، 1987، ج.2، ص549) ليستريح من عناء السفر، فإن نص الرحلة يصمت عما إذا كان الرقيق هم الآخرون يستفيدون من حمّام يزيل عنهم عياءهم. وفي هذا السياق، ومن "المواضيع الخسيسة" (لوغوف، 2007، ص13) حسب التاريخ التقليدي ذات الصلة بالتعافي من العياء،

يصف ابن بطوطة حمّاما يضم جواري كن يدخلن مع الرجال، وكان من أراد الفساد فعله في الحمّام. (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص297).

لا شك أن الرقيق كانوا يلجؤون إلى التكيف الديني والتمسك بالإيمان، إذ كان ذلك يوفر لهم نوعا من الاحترام والتوقير، ويكفينا دليلا على ذلك أن كتب المناقب تصف جملة من المتصوفة والعُبّاد بأنهم من السود (التادلي، التشوف، ص343).

يمكننا من خلال رحلة ابن بطوطة استشفاف أن الرقيق الذين كانوا يتوفرون على مهارات، سواء في التجارة أو التعليم أو الترجمة، ربما دفعهم ذلك إلى الترقي الوظيفي، مما كان يتيح لهم نوعا من الراحة مقارنة بالعمل الجسدي الشاق. (ابن بطوطة، 1987، ج.1، ص 288)

فهل كان ثمة تضامن بين الرقيق يُبدد العياء ويزيل التعب والغمة؟ أم أن سعي الرقيق إلى التقرب من الأسياد جعلهم يؤثرون مصالحهم الشخصية، فكانوا في كثير من الأحيان سببا في زيادة معاناة إخوانهم من الرقيق؟

خاتمة:

خلصت هذه الدراسة إلى أن جسد الرقيق في رحلة ابن بطوطة لم يكن مجرد أداة للخدمة والعمل، بل كان فضاء للمعاناة والمقاومة في آن واحد، فمن عناء الترحال القسري من طول انتظار استئناف السفر وما يترتب عنه من ضجر، ومعاناتهم من وعورة المسالك وقطع الأودية الجارية، وما كان يتعرض له الرقيق في جبل هندوكش الذي يعني قاتل الهندي لعدم تأقلمهم مع برودته القاسية، إلى عناء الهوية المسلوبة من خلال اقتلاعهم ونقلهم قسرا إلى جهات أخرى، حيث عانوا من الاغتراب والحنين إلى قبائلهم، وما كان يشكله عقاب النفي من تغيير الاسم واللقب واللغة من معاناة واغتراب. كما تناول البحث انتقال الرقيق على شكل هدايا من يد إلى يد ومن مجال إلى آخر بما يلحقه من عناء نفسي وجسدي. أما عناء الأمومة خلال الرحلة فقد تبين أن سفر الأم الحامل عبر محمل على جمل رديء وليلا يُشكل إرهاقا نفسيا وجسديا، يضاف إلى ذلك أن الشروط المحيطة بالإنجاب خلال الرحلة وآلام الطلق تزيد من عناء الأم. وقد طرح المحور كذلك مسألة ابن بطوطة الذي كان كثير الزواج مما خلّف أبناء، وباعتباره مصدرا لحماية جسد الأم، كان اختفاؤه يزيد تلك الأم عياء لها ولمولودها. كما تبيّن من خلال فصل إيديولوجيا العياء أن لغة ابن بطوطة الموظفة في وصف الرقيق هي لغة التملك بدلا من اللغة

الإنسانية، توظيفه أفعال التملك أمر، ضرب، نفى، أهدى، وتصنيفهم خدمة لسوق النخاسة الرومي، التركي، الهندي، غير أن الرقيق لم يكونوا مجرد ضحايا سلبيين، بل أبدعوا استراتيجيات متعددة للتعافي والمقاومة، من الفرار والتدين إلى الأغاني والتكيف مع البنية الاجتماعية المحيطة بهم. وتبقى رحلة ابن بطوطة وثيقة تاريخية تستحق إعادة القراءة من منظور من صمت عنهم النص أكثر مما تكلم.

لائحة المصادر والمراجع:

_ ابن بطوطة، (1987م). **رحلة ابن بطوطة تُحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، ط.1، لبنان، دار إحياء العلوم، بيروت.

_ التادلي أبو يعقوب يوسف بن يحي (1997). **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**. ط.2، المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

_ بول ريكور، (2009). **الذاكرة، التاريخ، النسيان**. ط.1، لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت.

_ دافيد لوبروتون، (2018). **سوسيولوجيا الجسد**. ط.2، مصر، روافد للنشر والتوزيع، القاهرة.

_ كارول م. كونيهان، (2013). **أنثروبولوجيا الطعام والجسد: النوع، والمعنى، والقوة**. ط.1، مصر، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

_ جاك لوغوف، (2007). **التاريخ الجديد**. ط.1، لبنان، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت.

_ ابن الأخوة محمد بن أحمد القرشي، (1976). **معالم القربة في أحكام الحسبة**. مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1976.

_ **الشيزري** عبد الرحمن بن نصر ، (1946). **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**. مصر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

_محمد زنيبر، مادة "بطوطة"، ضمن "معلمة المغرب"، (1991)، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا.

Georges Vigarello, (2020), **HISTOIRE DE LA FATIGUE**. Edition de Seuil, Paris,2020.